# الربيع السوريّ:
# خطاب الجنس وألاعيبه

موسى الزبيدي ❖

ليس جديدًا استخدامُ الجنس لترذيل الخصوم، وتسفيه معتقداتهم، وسلب حقوقهم. فالخطاب الجنسيّ سلاحٌ لجأ إليه المتخاصمون منذ أقدم العصور. وقَد تجلّى ذلك في التعبيرات القديمة التي جعلت اغتصابَ عرش الملك يرافقه اغتصابُ الملكة كذلك (كما في اغتصاب كلوديوس لعرش أخيه وزوجته معًا في مسرحيّة هاملت لشكسبير). ولهذا جرى تصويرُ احتلال البلاد، في مختلف الثقافات البشريّة، على أنه اغتصاب بمعناه الجنسيّ البحت؛ ذلك لأنّ احتلال أيّ بلد كان دائمًا يَتْلوه أو يُصاحبه اغتصابٌ أو سبيٌ لنسائه. ومن هنا لم يعد التعاون مع المحتلّ خيانةً عظمى فحسب، بل بمثابة مضاجعته أيضًا؛ وصار تقاعسُ أهل البلاد المحتلّة عن مقاومة الاحتلال عُنَّةً وخُصاءً.

---

❖ كاتب سوريّ مقيم في الخارج. والاسم مستعار.

يُنسَب إلى يوحنا الدمشقي (٦٧٥-٧٤٩م) أنه كان أولَ من أشاع لدى أبناء دينه الروم البيزنطيين أنّ العرب المسلمين قومٌ لا يَشْبعون من الجنس. وكان الهدف استنهاض الهمم العسكريّة لدى الروم لكي يَحُولوا دون «اغتصاب» العرب المسلمين «الشبقين» للأرض والعِرض في الإمبراطورية الشرقيّة المقدّسة. ويجب ألا ننسى الاعتقاد الشائع بين الإسبان أنّ الفتح العربيّ الإسلاميّ للأندلس سنة ٧١١م كان بسبب صرخة «القحبة الروميّة» (La Cava Rumia)، ابنة جوليان حاكم سَبْتة، الذي استنجد بموسى بن نصير، حاكم إفريقيّة، حين اغتصبها ملكُ الأندلس رودريغيز في بلاطه في طليْطلة. وإذا كانت تلك الصرخةُ المزعومة وراء نخوتنا التي فتحت الأندلسَ، فإنّ صرخة «وامعتصماه» التي أطلقتْها «شريفةٌ» من حرائر العرب في بلاد الروم (بحسب الأسطورة العربيّة) أنست مُعتصمَنا فتنة بابك الخُرَّمي ليتفرّغ لفتح عَمّوريّة!

الملاحَظ أنّ تجنيس الصراعات يتّخذ شكلين: فحين يكون الصراع عسكريًّا خارجيًّا يلجأ المتصارعون إلى اللعب على وتر المخاوف الجنسيّة (كالاغتصاب والخُصاء)؛ وحين يكون عقائديًّا يلجأون إلى الترذيل الجنسيّ (كتهم «الشذوذ» وغيره). وإليكم مثالين شعريين حديثين. الأول من قصيدة «لا تُسقطوا الشام أيُّها البقرُ» للشاعر الفلسطينيّ أحمد حسن المقدسي، يهاجم فيها حكّامَ الخليج لمناصرتهم ثوّارَ سوريا، فيتحدّث في البيتين الأخيرين عن مآل العرب (لو انتصر الثوار على النظام): «ولن نعيش كأيتام بلا حمد/ ولن نموت إذا ما ألغيّت قطرُ/ لكنّنا دون سيف الشام جاريةٌ/ يلوطُها التركُ والرومانُ والتترُ!» والمثال الثاني مأخوذٌ من قصيدة «لن تسقطَ الشآمُ» للشاعر التونسيّ محمد نجيب بلحاج حسين، التي ردَّ فيها على قصيدة المقدسي: «ما أصبح البعث إلا وكرَ فاجرةٍ/يرتاده الفسقُ، تلهو حوله الزُّمر.» الشاعر هنا يحاجج بالطريقة الغوغائيّة عينها التي حاجج بها المقدسي، بل «يُذكِّره» بأن حاضرَ الشام في ظلّ البعث، لا مستقبلَه إن انتصر الثوار، أشبهُ ما يكون بوكر فاجرة. وبما أنّ صراع الطوائف عقائديّ أساسًا، فقد اكتشفت الطوائفُ الإسلاميّة منذ نشأتها فوائدَ الترذيل الجنسيّ، ولا نزال إلى يومنا هذا نسمع الترّهات في أحاديث العامّة: فهذه طائفةٌ لا تزال تلوك حادثةَ «الإفك» منذ أربعة عشر قرنًا، وتزعم أيضًا أنّ أحد الخلفاء الراشدين كان في دُبُره داءٌ لا يشفى منه إلا بماء الرجال، أو أنّ طائفةً معيّنةً لا ترى حرجًا في إتيان المرأة في دبرها، أو يمارس أتباعُها اللواطَ بلا حياء؛ فيردّ أبناءُ الطائفة المتّهَمة على خصومهم بأنهم قوم لا يغارون على أعراضهم. ومفارقة المفارقات أنّ الطائفتين تتفقان في الزعم أنّ طائفةً ثالثةً تقيم احتفالاً سنويًّا لعبادة فرْج المرأة. والطوائف الثلاث السابقة تتّحد في زعمها أنّ طائفة رابعة لديها لقاء سنويّ أيضًا يجتمع فيه أتباعُها ليلاً ثم تُطفأ الأنوار فجأةً كي يتناول كلُّ رجلٍ أقربَ امرأة إليه ويضاجعَها ولو كانت من المحرَّمات عليه.

كلّ هذه التُّرّهات لا صحّة لها إطلاقًا، وإنْ صحّ بعضُها فمردُّه إلى أسباب فرديّة لا طائفيّة. ورواةُ هذه السخافات يقومون بنوعين من الدعاية في آن معًا: دعايةٍ ضمنيّةٍ لصالح طائفتهم تجعل منهم مثالَ العفّة والحشمة، ودعايةٍ علنيّةٍ مضادّة عن أتباع الطوائف الأخرى تجعل منهم مثالَ الانحلال الجنسيّ والانحطاط الخلقيّ. وهذه الغوغائيّة هي أنجعُ طريق لتحقيق أقصى درجات الحَرْم أو اللعن الاجتماعيّ من خلال إقامة الحواجز النفسيّة التي تحُول دون تقارب أتباع المذاهب.

حين اندلعت الاحتجاجاتُ في مدينة درعا السوريّة، راجت بين صفوف المعارضة شائعةٌ مفادُها أنّ العقيد عاطف نجيب، رئيسَ فرع الأمن السياسيّ في المدينة، وابنَ خالة الرئيس بشّار الأسد، قال لأهالي درعا الذين جاؤوه ليُفرج عن أولادهم الذين كتبوا على جدران مدرستهم شعاراتٍ مناوئةً للنظام: «انسوا هؤلاء الأولاد. روحوا ناموا مع نسائكم وخلّفوا أولادًا غيرَهم. وإنْ كنتم عاجزين عن ذلك، فبإمكاننا نحن أن نفعل بنسائكم كذا وكذا.» ويضيف مروّجو هذه الإشاعة أنّ هذا هو السبب الذي دفع متظاهري درعا ذاتِ المجتمع العشائريّ إلى رفع شعار «الموت ولا المذلّة» في المظاهرات التي انطلقتْ في إثر ذلك اللقاء المُهين. وسواءٌ أصحَّت تلك الإشاعة أمْ لم تصحَّ، فالمؤكّد أنّ ما ساعد على انتشارها هو أنها قابلة للتصديق لسببين: طبيعة تعامل الأجهزة الأمنيّة السوريّة منذ ما يزيد على نصف قرن مع المواطنين بطريقة مذلّة؛ ومطابقة الإشاعة للخيال الشعبيّ الذي يحوّل كلَّ تهديدٍ إلى عقدة خُصاء.

ثم تحقّق قلقُ الخصاء هذا على أرض الواقع حين قُتل الطفل حمزة الخطيب، ابنُ محافظة درعا، على أيدي أجهزة المخابرات، التي لم تكتفِ بتعذيبه، بل زادت على ذلك أن بترتْ قضيبَه ووضعتْه في فمه، بحجة ان ابن الثلاثة عشر عامًا كان ذاهبًا إلى سكن الضبّاط لاغتصاب نسائهم! والحقّ أنّ الذين بتروا قضيبَ حمزة، أو سوَّغوا بترَه، كانوا يستجيبون لنداءٍ من أعمق أعماق اللاشعور يقول لهم: اخصوا هذا المعتدي الصغير واجعلوا منه عبرةً قبل أن يخصيكم مَنْ هم أكبرُ منه! الجدير ذكرُه أنّ البتر جزءٌ من تكتيك التخويف الذي بموجبه اقتُلعتْ أيضًا حنجرةُ إبراهيم القاشوش وكُسّرتْ يدا رسام الكاريكاتير علي فرزات، لأنّ الأول غنّى للثورة والآخرَ رسَم لها.

❖ ❖❖

نظرًا إلى التعقيدات الطائفيّة في المجتمع السوريّ، أفرزت الاحتجاجاتُ السوريّة خطابًا طائفيًّا مقيتًا من قبل الموالاة والمعارضة، سأقتصر في هذه المقالة على صبغته الجنسيّة. ما يُؤسَف له هو أنّ الفضاءات المفتوحة على شبكة الإنترنت سمحتْ للطائفيين الجُدد بالظهور. فصرنا نسمع شتائمَ مُجحفةً في حقّ العلويين تصفهم بأنهم «أبناءُ المتعة» أو «أبناءُ الزنا والخنا» وما إلى ذلك. ودخل الداعيةُ السعوديّ الشيخ محمد العريفي

على خطّ الترذيل الجنسيّ؛ ففي إحدى خطبه، ردّد كلّ ما يُشاع في الإعلام المناوئ للنظام السوريّ، من اغتصابٍ للنساء وبترٍ لأعضاء المعتقَلين واغتصابهم، ثم زاد أنّ الرئيس بشّار الأسد نفسه «من نُطفةٍ خبيثة» ــ وهو تعبيرٌ يحيل على مخزونٍ طائفيّ في اللاوعي الجمعيّ.[1]

**رفع المتظاهرون في بلدة كَفْرنُبُل يافطةً كُتبتْ عليها عبارةٌ فيها توريةٌ جنسيّةٌ طريفة: «حلب لن تقوم ولو شربتْ قياغرا.»**

ومن التهم التي توجّهها المعارضةُ إلى من لم ينتفضْ على نظام الأسد نقصُ الرجولة والمروءة. فالشعار الذي يكرّره المتظاهرون هو «إلْ ما بيشارك ما فيه ناموس.» كما أطلق أهالي حمص على محافظة الرقّة، الهادئة نسبيًّا، لقبَ «محافظة أبو بدر» (وأبو بدر «طرطورٌ» مشهور في المسلسل السوريّ «باب الحارة»). وروى لي في الصيف الماضي بعضُ أبناء الرقّة الذين زاروا مدينةَ دير الزور أنّ الديريين كانوا يتندّرون عليهم بسؤالٍ استفزازيّ، «إنْ شاء الله الجَزَر متوفّر عندكم بالرقّة؟» أيْ إنّكم أرانب لا رجال! كذلك رفع المتظاهرون في بلدة كَفْرنُبُل يافطةً كُتبتْ عليها عبارةٌ فيها توريةٌ جنسيّةٌ طريفة: «حلب لن تقوم ولو شَربتْ قياغرا.»[2]

في المقابل انتهجتْ قناةُ الدنيا، الموالية للنظام، مسلكًا مشابهًا في ترذيل ثوّار سوريا. في البداية، لم تعترفْ بوجود محتجّين لهم مطالبُ مشروعة، بل أصرّت على أنهم مجموعاتٌ إرهابيّة مسلّحة تتلقّى أوامرَها من الخارج لتخريب البلد. ولكي «تبرهن» القناة على سقوطهم السياسيّ والأخلاقيّ، لفّقتْ تهمًا لهم باغتصاب عددٍ من فتيات هذا الحيّ أو تلك المدينة، متجاهلةً حالات الاغتصاب العديدة التي ارتكبتْها عصاباتُ الشبّيحة. ومع أنّ هذه القناة أنكرتْ هروبَ لاجئين سوريين إلى تركيا في البداية، إلا أنها راحت بعد فترة تروّج لكذبة اغتصاب ٤٠٠ فتاة سوريّة وولادة عدد كبير منهنّ خلال فترةٍ لا تكفي لكي يضعن حملهنّ ولو كنّ من فصيلة القطط! إذن، هؤلاء الهاربات، بحسب «الدنيا»، أصبحن عاهراتٍ حُكمًا، بتواطؤ من الحكومة التركيّة، أو بسبب قصر نظر أهاليهنّ الذين لم يُدركوا ماذا بيَّت الأتراكُ لهنّ. طبعًا، لم يكلّفْ أحد في القناة خاطرَه ليسأل: ما الذي دفع هؤلاء «المغتصَبات» إلى اللجوء إلى تركيا في المقام الأول؟!

وحين بدأتْ دولُ الخليج العربيّ تقود الحملة العربيّة ضدّ نظام الأسد في الجامعة العربيّة صيفَ ٢٠١١، استضافت «الدنيا» المُواليَ الشهيرَ شريف شحادة، الذي قال إنّ أمير قطر «تَراذل حتى على أسياده [الأمريكان]» لأنه لم يمنع قناةَ الجزيرة من تغطية ما يجري في سوريا. بل زاد على ذلك بقوله «إنْ كان [أمير قطر] لا يعلم من هو أبوه، فليسأل أمّه» لأنه «لو كان ابنَ أمّه وأبيه لما فعل بالسوريين ذلك.» وبلغ الترذيلُ الجنسيّ عند مُوالٍ آخر أنْ تحدّى وزيرَ خارجيّة قطر أن يكون «رجلاً» ويقولَ: «نعم كنتُ ممحونًا وكان يُلاط بي!» ثم عرض المعلّق ذاتُه «فلاشة» ادّعى أنّ فيها مقطعَ فيديو مدّتُه ٣ دقائق وعشرون ثانية وأقسم أنّه يُثبت أنّ أحد حكّام الخليج (لم يُسمِّه) كان يأتي لزوجته بعميل استخبارات أمريكيّة ليضاجعها أمام عينيه![3]

ويومَ انعقدتْ قمّةُ الجامعة العربيّة في ٢٨ آذار ٢٠١٢ ولم تُدعَ سوريا، راحت قناةُ الدنيا تردّ على «التحريض الطائفيّ» الذي يقوم به علماءُ الدين السعوديون ومن لف لفّهم من «القرضاويين الجدد» المتورّطين في «الحملة المسعورة» ضدّ وحدة سوريا. ولكي تثبت القناة أنّ أحد هؤلاء المشايخ ساقطٌ أخلاقيًّا، ولا يحقّ له أن يتكلّم على الحريّة والكرامة للسوريين، ادّعت أنه أفتى منذ ستينيّات القرن الماضي بحقّ الأب في مضاجعة ابنته إن اضطُرَّ إلى ذلك. الطريف أنّ الصورة التي عرضتها القناةُ لهذا الشيخ المزعوم توحي بأنه من مواليد السبعينيّات، فكيف أصدر تلك «الفتوى» قبل أن يولَد بعقدٍ من الزمان؟

لكنْ ما الذي ترمي إليه هذه القناة من وراء خطابها الذي يدّعي ضمنًا الفضيلةَ لأصحاب القناة وأولياء نعمتها، والرذيلةَ علنًا لقنوات «التحريض» و«التضليل» ومشاهديها؟ هي المرامي ذاتها التي قصدها المتخاصمون الطائفيون من إشاعات الترذيل الجنسيّ منذ أقدم العصور. فحين يُتَّهَم الثوار بأنهم عملاء مأجورون تحرّكهم قوًى خارجيّةٌ مثل تركيا ودول الخليج، فإنّ مثل هذا الزعم يحتاج إلى ما يدعمه من دليل منطقيّ؛ وبغياب الدليل فلا بدّ من بديل يختزل كلّ منطق ويقطع قولَ كلّ خطيب: وهو أن يُصوَّر الثوار السوريون وحلفاؤهم الأتراك الذين فتحوا حدودَهم للهاربين من بطش النظام على أنهم مجموعة من منتهكي أعراض السوريات، وأن يُصوَّر واحدٌ من أقطاب الأنظمة الخليجيّة الداعمة للثوّار على أنه ديّوثٌ والآخرَ لوطيٌّ مَمحون. وإذا استطاعت القناة أن تُروّج أنّ خصومها أصحابُ سوابق مُشينة، فهل يستطيع أحدٌ أن يُصدق اليوم أنهم دعاةُ حريّةٍ وديمقراطيّةٍ وإصلاحٍ أو يبغون مستقبلاً مُشرِّفًا للسوريين؟

---

(١) راجع نصّ خطبته بالصوت والصورة على الموقع التالي: http://www.youtube.com/watch?v=z6PLXT7PGKQ

(٢) انظر شبكة الغاوون: http://www.alghawoon.com/mag/art.php?id=1234

(٣) جُمعتْ هذه المقتطفات في شريط واحد تحت عنوان «أكثر ١٠ مقاطع مضحكة قدّمها الإعلامُ السوريّ و أبواقه» وهي منشورة على الرابط التالي: http:// www.youtube.com/watch?v=Uc0Ql6Qfn9k